المتحف الوطني بدمشق

في عيده الذهبي

كلمة ألقيت بمناسبة الاحتفال بالعيد الذهبي الخمسيني لمجمع اللغة العربيـــة والمتحف الوطني بدمشق في مدرج جامعة دمشق في ٥/١٠/١٩٦٩ .

عندما ذرَّ قرن الاستقلال سنة ١٩١٩ ، وفي الأيام الأوائل لهذا الحدث العظيم في حياة هذا البلد ، نشأت عدة مؤسسات علمية وطنية هامة ، منها متحف دمشق ، وكان اسمه إذ ذاك « دار الآثار الوطنية » .

إن دلَّ هذا الحدث على شيء ، فهو يدل على نضج الطبقة الواعية وعلى عمق تفكيرها في ذلك الوقت المبكر ، ويشير إلى أن البلاد العربيـة التي عاشت مدة طويلة في عهد الانحطاط ، سادرة في طريق الخمول والركود ، لم تفقد أصالتها ، فإنَّ جذوة ضئيلة من أصول الحياة ، وبصيصاً ضعيفاً من النور ، ما لبثا أن توهَّجا في الوقت المناسب ، وأصبحا قبساً يستضاء بهدْيه .

صحيح أن عوامل كثيرة أرادت لهذا النور أن ينطفئ ، لكن أصالة هذه الأمة وتعلقها بالماضي المجيد ، أمدَّت هذا النور بالحياة ، وهيأت له الاستمرار ، وجعلته أكثر توهجاً وتألقا .

غرست نواة المتحف في المدرسة العادلية الكبرى بدمشق ربيبةً للمجمع العلمي العربي . رعاها المجمع العلمي ، وهيأ لهـــا ـ على قدر ما لديه من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إمكانات ـ جميع أسباب الحياة ، وحماها من صروف الزمن . شبّت هذه المؤسسة الصغيرة ، وترعرعت ، وبلغت سن الرشد ؛ وكان لا بد لها من أن تشق طريقها في الحياة ، فانفصلت عن أمها إلى بناء جديد ، هو البناء الحالي ؛ ولكن وشائج القربى وخيوط المحبـــة ، لا تزال تربط بين هاتين المؤسستين : المجمع ورجاله ينظرون من بعيـد إلى هذه المؤسسة الفتية ، يتتبعون خطواتها ، ويكلؤونها بعين الحب والحنان ، ويفخرون بازدهارها . المتحف الذي نما ، وأصبح المديرية العامة للآثار والمتاحف ، لا يزال يعترف بأبوّة المجمع العلمي ، وهو ينظر إليه بكل إجلال ، يحترم ذكرى أولئك الرجال البررة ، أعلام الفكر في فجر النهضة الجديدة ، ويقدّر خلفاءهم الذين يتابعون السير في الطريق ، يحملون مشعل الفكر ، ليتمموا الرسالة .

استقر المتحف الوطني ببنائه الجديد سنة ١٩٣٦ ، وقد كان مخطط البناء قابلاً للتوسع على مراحل ، وقد ضمت إليه بالتدريج الأبنية التالية : أعيد في جواره الغربي إنشاء قسم من قصر الحير الغربي المكتشف في البادية ، وأنشئت مكاتب الإدارة إلى غربي القصر في الوقت نفسه ، ودشن هذا العمل سنة ١٩٥٠ . أنشئ الجناح الغربي سنة ١٩٥٣ وهو مؤلف من قبو وثلاث طبقات ؛ ضمّ إليه في سنة ١٩٦٠ رواق هام كان مطلاً على ملعب كرة السلة المجاور ، وأخيراً أنشئ امتداد الجناح الغربي سنة ١٩٦١ ، وهو يضم في نهايته قاعة المحاضرات والمكتبة .

وصل المتحف الوطني بتوسعه إلى غايته ، وأصبح مؤلفاً من أربعة فروع مصنفة حسب التسلسل الزمني :

١ ـ فرع الآثار السورية القديمة لحفظ الآثار منذ فجر التاريخ حتى الغزو اليوناني في القرن الرابع قبل الميلاد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٢ — فرع الآثار السورية من العهود الكلاسيكية (اليونانية الرومانية والبيزنطية) .

٣ — فرع الآثار العربية الإسلامية .

٤ — فرع الفن الحديث .

عُنيَ القائمون على المتحف بتصنيف الآثار حسب المبادىء العلمية ، كما عُنوا بعرضها حسب أحدث الأساليب المتحفية .

★ ★ ★

ازدهر المتحف الوطني بفضل رعاية الدولة ورجال الفكر وتعاون القائمين عليه ، وأصبح — بحمد الله — وجه البلد الناصع ، وسجل تاريخه الخيّر ، حتى غدا قبلة الأنظار ، تهوي إليه أفئدة المختصين من العرب والأجانب على السواء ؛ ولكن مع ذلك فاننا نشعر أن متحفنا الفتي ، لا يزال في بداية الطريق ، وإنا نتطلع دوماً إلى تلافي عيوبه ، واستكمال نواقصه ، وإيجاد المجال الحيوي الجديد لتوسيعه ، ولا يكون هذا طبعاً إلا بانشاء متحفين جديدين ، يستقل فيها فرع الآثار القديمة وفرع الفن الحديث . وقد وضعنا هذا المشروع في خطتنا الخمسية الثالثة ، وكلنا رجاء أن يتحقق هذا المشروع في المستقبل القريب ، حتى تظل هذه المؤسسة سائرة في طريق التقدم والازدهار .

★ ★ ★

إذاً ، هذه النواة التي غرسها رجال الفكر منذ خمسين عاماً ، وتعهدها في أول نشأتها المجمع العلمي ، قد نبتت نباتاً حسناً وأزهرت وأثمرت .... يعود الفضل في ذلك إلى رجل عظيم بعلمه وخلقه وإخلاصه لوطنه العربي الكبير ، تولّى أمر هذه المؤسسة منذ ولادتها ، فأحسن قيادتها ، وسهر على تنميتها بروح عالية ، بذل جهوداً كبيرة ، حتى غطّى بأتعابه قصور

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الوسائل والامكانات التي وضعت تحت تصرفه. ظل هذا الرجل مثابراً صابراً متجلداً ، حتى استطاعت هذه المؤسسة أن تقف على قدميها . لم يكن هذا الرجل يعمل في نطاق المتحف فحسب ، بل وقع عليه أعباء أخرى خارج المتحف : فهو الذي كان يعنى بالأبنية الأثرية ، ويسعى إلى ترميمها ، يراقب تجارة الآثار ويحدّ ـ ما استطاع ـ من تهريب الآثار ، يتعاون مع السلطات من أجل حفظ تراث الأمة المنقّب عنه ، وقد استطاع ـ باخلاصه وتفانيه أن ينقذ آثاراً هامّة ذهبت إلى الغرب أو إلى طريق الغرب ، فاستعادها ، وهي الآن من أهم محتويات متحف دمشق .. هذه الأعمال الكبيرة وغيرها كثير .... جعلت هذا المتحف الصغير ينقلب إلى مؤسسة كبيرة في عهد الاستقلال التام سنة ١٩٤٦ هي « مديرية الآثار العامّة » . سهر هذا الرجل نفسه على رعايتها في أول نشأتها ، واضطلع بأعبائها ، فترة من الزمن ... لذا لا يصح أن نحتفل بعيد هذه المؤسسة الذهبي ، دون أن نحتفل ونشيد بجهود هذا الرجل الكبير .... واسمحوا لي الآن أن أذكر اسمه بوضوح ، ذلك هو الأستاذ جعفر الحسني ، أطال الله عمره .

هذا الرجل الكبير ، عندما شعر أن هذه المؤسسة أصبحت قوية ، تستطيع أن تسير في طريقها التقدمي ، أسلمها إلى أيدٍ أمينة شابّة ، وانعطف إلى المؤسسة الأم ، وهي « مجمع اللغة العربية » يثابر على عمله حتى الآن ، ولكنه لا زال يرمق من بعيد مؤسستنا الناشئة ، ويرنو إليها بقلبه .

ظلت مؤسستنا التي أصبح اسمها منذ سنة ١٩٥٩ « المديرية العامة للآثار والمتاحف » تتابع بجدّ السير الحثيث في سبيل تدارك النواقص وتلافي النقائص ، وكان عهد الدكتور سليم عادل عبد الحق ، ذلك الرجل النشيط الدؤوب ... مليئاً بالاحداثات والمنجزات ، ولا زالت هذه المؤسسة تسير في طريقها التقدمي حتى الآن .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا أريد أن أشير هنا إلى جميع أوجه النشاط ، وإنما أكتفي بالنظر إلى مساعي مؤسستنا الناشئة في مجال المتاحف فقط :

١ — اكتمل تقريباً المتحف الوطني ، ونحن نرغب في إنشاء متحفين جديدين — كما ألمعنا سابقاً — ، ولقد أعدنا النظر في تنظيم المتحف وتنسيقه بمناسبة انعقاد المؤتمر التاسع للآثار الكلاسيكية بدمشق في الشهر الماضي ، وكان بقاعته الشامية وحديقته الغناء مقرّاً للمؤتمر . لقد كان المتحف مفاجأة سارّة لكل من لا يعرفه سابقاً ، وقد أعرب المؤتمرون عن إعجابهم وسرورهم العميق ، بأن عاشوا أياماً في ردهات هذا المكان الجميل ، حتى أن بعضهم راق له أن يسميه « جنة العلماء » .

٢ — أنشئ متحف التقاليد الشعبية والصناعات الوطنية القديمة في قصر العظم بدمشق سنة ١٩٥٣ ، ويعتبر من أهم متاحف الشرق الأوسط من نوعه ، وأكثرهم غنى وجمالا .

٣ — ٥ — أنشئ متحف حماة في قصر العظم بحماة ، ومتحف تدمر الجديد ، ومتحف طرطوس ، ودشنت هذه المتاحف الجديدة سنة ١٩٦٠ .

٦ — متحف حلب القديم الذي كان أسس سنة ١٩٣١ ، هدم ، وأنشئ متحف على أحدث أسلوب ، تسلمنا بناءه سنة ١٩٦٧ ، ونظمنا جزءاً منه في خلال السنتين الماضيتين ، واحتفلنا منذ أيام بتدشينه . ويدلّ ما أنجز منه حتى الآن ، أنه بداية طيبة ، تبشّر بمستقبل عظيم لهذا المتحف المرموق . وقد عبر العلماء المؤتمرون عن إعجابهم به ، واعتبروه أحدث متحف صُنّف ونُظّم حسب أحدث الأساليب المتحفية في العالم .

٧ — متحف السويداء لا يزال نواة لمتحف ستكون له أهميته في المستقبل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٨ — ٩ — أنشئ في أحد أبراج قلعة بصرى الشام متحف صغير ، يمثّل حياة المنطقة ونشاطها في المجالين الاجتماعي والاقتصادي ؛ وأعيد إنشاء دارة شهبا من أجل فسيفسائها الرائعة ، ستكون متحفاً للبلدة .

١٠ — مددنا يد العون لمتحف دمشق الحربي عند إنشائه سنة ١٩٥٩ ، ونحن مستعدون لبذل أي جهد في مساعدة المتاحف التي تفكر الدولة في إنشائها .

١١ — نحن الآن في سبيل تنظيم متحف جديد في المدرسة الجقمقية بدمشق ، سيمثّل فيه تطور التعليم وتطور الكتابة والخط العربي ، وسيكون — إن شاء الله — متحفاً هامّاً ، يسدّ بعض الفراغ في هذا الموضوع .

★ ★ ★

وهنا لا بدّ لي من أن أشير إلى أن هذا القرن الذي نعيش فيه هو عصر المتاحف : لقد أدركت الأمم الراقية أن كل وجه من وجوه النشاط أو أي مظهر من مظاهر الحضارة يجب أن يبرز في متحف خاص ، يكون ملاذاً للباحثين ومعهداً للطلبة الناشئين . لذا كان تعدد وتنوع في المتاحف ؛ نعدّ منها : المتحف الأثري ، والمتحف التاريخي ، ومتحف التاريخ الطبيعي ، والمتحف الاتنوغرافي ، والمتحف الصحي ، والمتحف الزراعي ، والمتحف الصناعي ، والمتحف الفلكي ، والمتحف الحربي ، ومتحف الأحياء المائية ، والمتحف البلدي ، ومتحف تطور العلوم ، ومتاحف الفنون التطبيقية ، ومتاحف الفنون التشكيلية ... إلى ما هنالك من متاحف متنوعة .... فلربما أنشئ متحف لكل فرع من فروع العلوم ولكل ضرب من ضروب الفنون ! إن كل دولة ، حتى وكل مدينة ، تباهي بمتاحفها ، ترعاها وتهيئ لها جميع أسباب الحياة والازدهار ، ذلك لأن المتاحف بحفظها على التراث ، وبدأبها على الدراسة والبحث وإشاعة العلم والثقافة لجميع المواطنين ، هي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مراكز إشعاع ، وسجلات أمينة لمدنيَّة الأمة ، فهي تشكل ما يمكن أن نسميه « خميرة الحضارة المستمرَّة » ، فبدونها تضعف جذور الحضارة ، وتذوي أزهارها ، وتتراجع الأمة إلى الوراء ، فمن يرضى لأمته التراجع ؟ .

★ ★ ★

وأخيراً أحبّ قبل أن أتخلى عن مكاني هذا أن أهمس في أذن بعض المؤسسات ، فأذكّرهم بواجبهم نحو إنشاء المتاحف اللائقة التي يجب أن تفتح إلى الجمهور وتكون مدارس علمية عملية ، فأتساءل : أين **المتحف الصحي** الذي أنشئت نواته سنة ١٩٣٢ في وزارة الصحة ثم اختفى ؟ أين **متحف التاريخ الطبيعي** الذي كان يجب أن ينشأ منذ نشأت كلية الطب ثم كلية العلوم ؟ هل يبقى **المتحف الزراعي** محصوراً في دار صغيرة ، لا يجد فيها مجال الانتعاش ؟ هل تظل البلاد دون **متحف علمي** ، يبيّن فيه تطور الأدوات والآلات العلمية منذ القديم حتى أيام الذرة واكتشاف القمر والكواكب ؟ . كيف نريد أن يتعلم شبابنا حسياً وعملياً ، حتى نستطيع أن نجاريَ بهم ركب الحضارة ، ونشغل مكاننا بين الأمم المتقدمة ؟ إن تراثنا القديم يحضّنا ويحثّنا على ألا نركن إلى التغني بالماضي ، ونستريح على أنقاضه ، دون أن نعمل للحاضر وللمستقبل . لقد كنا سابقين ، فسُبقنا ، وكنا متفوقين ، فغُلبنا على أمرنا . إن آثارنا القديمة ومعانيها الكامنة في أحشائها تستنهضنا من جديد فلننهض ، ولنسر بسرعة تعوّض علينا ما فات ، وذلك حسب خطَّة مستمرة محكمة ، ثم نسأل الله السداد والتوفيق .

محمد أبو الفرج العش

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net